

نماذج من أسفار الشيخ عدّون ورحلاته

د/ عمر بن حمو لقمان سليمان بوعصابة
مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي للدراسات العربية
جامعة نزوى - سلطنة عُمان
omarlokmane42@yahoo.fr

مُقَرَّرَةٌ :



يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ (الروم: 42). صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هذا حدثٌ على الضرب في الأرض للاعتبار بما آل إليه أمرُ المشركين، وكيف حلَّ عليهم غضب الله في سالف العصور والدهور.

ولاشكَّ أنَّ الأسفار لطلب العلم ونشر الفضيلة والإسلام في أقاصي العالم قد ترقى في الأهمية إلى مرتبة النظر والاعتبار.

لقد ضرب العلماء أكباد الإبل إلى مشارق الأرض ومغاربها لرواية حديث عمن سمعه عن رسول الله ﷺ، أو لحضور مجلس عالم ذاعت شهرته أو لجلب كتاب نادر عرفت أهميته. هذا غير الذين ذهبوا وسافروا بعيدا إلى غرب إفريقيا أو إلى شرقها أو إلى شرق الصين إلى كانتون مثلا، [«قوانزو» الآن]، لنشر الإسلام وللتجارة، أو الذين طافوا حول العالم ورسموا الخرائط وكتبوا عن عادات الشعوب وتقاليدها من ذوي كتب الرحلات المشهورة.

أمَّا الآن فقد صارت الرحلة لسائر الناس مُتَنَفِّسًا من الأعمال، وفرارًا من ضيق المكان إلى رحابة الفضاء الواسع، ومن المناظر المتكررة، إلى المناظر الجديدة التي يضيفها المرتحل إلى ثقافته، ليسعد بها في حلّه، ويحنُّ إليها بعد طعنه في إقامته،

ويشتاق إليها في أوبته. ولكن لا تعدو أن تكون تلك السعادة إشباعاً لغريزة حبّ الاطلاع، ولها من الأنايئة أكثر من خدمة هدف أسمى.

أمّا إذا قصرنا الحديث في هذا الموضوع على الشيخ عدّون (رحمته الله) فأغلب الناس لا يعرفون أنّ أسفاره لأهداف سامية، وفيها من العناء ما لا يعرفه إلاّ الخاصة، فلو جمعت بعدّاد المسافات أو بالعدّاد الزمني لوجدنا أنها تفوق آلاف الأميال وأنها أخذت من عمره سنوات عدّة. لقد جعل الشيخ عدّون (رحمته الله) من الرحلة قمة العمل، وبالتنقل من مدينة إلى مدينة جسراً إلى غاية شريفة، فمرة لتفتيش مدارس قرآنية متعدّدة، وأخرى للقاء جماعات في التلّ متآزرة، جمعاً لتبرعات المحسنين من تجار أمناء، وأجراء بسطاء، لمشاريع خيرية، فالتقي بهم، ويستغلّ الفرصة ليعظّمهم مذكراً إياهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم. يعلمهم الاقتصاد في المأكل والملبس، ويحذّرهم من الإسراف والتبذير، ويعلمهم الأمانة، ويحذّرهم من أموال الناس والسرقه والغش؛ ليتمكّنوا من البذل والكرم والسخاء لبناء مدارس ومساجد ومعاهد وقصور في جنة الرضوان لنيل رضوان الله، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة: 21)، دون أن ينسوا أنّ من الأوليات الاعتماد على النفس لبناء سكنٍ لهم حتى ولو كلّفهم ذلك شظف العيش سنين عدداً.

وقد يغبطه البعض حينما يعقد رحلة إلى طبيعة البادية ليوم أو يومين مع أبنائه أساتذة معهد الحياة، لكنّه لا يعلم كم يعاني هؤلاء من إرهاق لحلّ المسائل العويصة التي تتطلّب تركيزاً لحلّها، وجلساتٍ متتابعة طويلة لا تنتهي إلاّ بوجود حلول مرضية لها، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالانقطاع لها وإعداد كلّ جهده وطاقته لذلك؛ فحينما يرتحل مع أبنائه الأساتذة يأكل معهم، ويشرب معهم، ويبيت في خيمة بالبادية معهم أو بدارة من دارات أطراف واحة المدينة، ولكنّه يلزمهم خلال تلك الأيام، ويلتزم معهم لسماع انشغالات المعهد دون ملل بالجلوس أكثر منهم، فقد وهب الله له طاقة الجلوس لساعات متتالية ما يجعل بعض الحاضرين يستأذن لاستنشاق الهواء مرّة بعد مرّة، أو لطلب راحة البدن، وهم أقوى منه بدنا، وأسلم

منه حواساً، ولكن أقل منه احتمالاً وصبراً، قد يُصَلِّي أحدهم لعذرٍ شرعي جالساً
ولكنه - وقد تجاوز المائة - لا يصَلِّي الفرض إلاً واقفاً!

وقد تكون الرحلة إلى خارج الوطن كالحجّ والعمرة إلى البقاع المقدسة أو لغرض
الاطلاع على أماكن ذات حضارة عريقة، أو لعلاج مرض ألمّ به، أو لزيارة الأحباب
والأصحاب، أو لأداء واجب التعزية في حقّ عالم جليل تربطه به أواصر المحبّة في الله.

أولاً: حالات الأسفار ووسائلها في عهده:

لم تكن الأسفار متاحة لجميع الناس، ولا بالسهولة التي نراها الآن، لاسيما
من مدينة القرارة إلى بقية المدن؛ وذلك لأنّها كانت معزولة في الصحراء عن المدن
المجاورة التي تربطها بالشمال.

لم يُعبَد الطريق إلى أقرب مدينة لها أي «بريان» إلاً مع نهاية عهد الاستعمار.
والسيارات التي تقلُّ الناس إلى «ثُقُرت» شرقاً أو إلى «غرداية» غرباً كانت قليلة جداً،
وحينما تسافر الشاحنة محمّلة بالبضائع وفوقها المسافرون قد تصادف في طريقها
العروق الرملية، وقد تغوص كلُّ عجالاتها في الرمال، وينزل من يستطيع إزاحتها من
تحتها ودفعها إلى الأمام بعد وضع الصفائح الحديدية تحت عجالاتها، ويتعطلُّ الناس
عادة لساعات تحت الشمس المحرقة والرياح العاتية، ولا ينفعهم إلاً زادهم أو
معارفهم من عرب الصحراء الكرماء إن صادف ذلك العطب قرب خيامهم.

ثانياً: أمثلة من معاناة الأسفار في عهد الشيخ عدّون:

يمكننا أن نسوق مثالا لمعاناة الأسفار في الزمن الذي عاشه الشيخ عدّون،
وقد كتبه بقلمه ليكون المصدر موثوقاً منه. يقول الشيخ عدّون (رحمته الله) في رسالة إلى
الشيخ أبي اليقظان إبراهيم (رحمته الله) مؤرخة بـ26 أوت 1939: «تعطلت سيارة
خبزي عيسى بن أعمارهِ إلى أن أدركته سيارة الشركة...». ويعني هذا أنّ هناك مدّة
زمنية لإسعافه قد تطول وقد تقصر، ثم يواصل فيقول: «كان هناك معارفه من
العرب، مشى إليهم فوجد فيهم سعة ورحباً، فأقام فيهم أحسن مقام». ويقول بعد

ذلك: «تأخر السفر لعدم وجود سيارة تُمرُّ بريان». علمًا بأن الهاتف منعدم في البوادي، ولا وجود له إلا في المدن، وبعدد محدود. إذا كان هذا في الثلاثينيات فكيف يكون قبل هذا؟

هذا نموذج من حالات السفر البرِّي. وإذا أردنا أن نأخذ نموذجًا من الأسفار البحرية علينا أن نبحث أيضًا فيما كتبه الشيخ عدون بنفسه في الصحافة اليقظانية.

لقد كتب الشيخ عدُّون مقالًا رائعًا في هذا الجانب، إذ استشاط غضبًا مما قام به السماسرة الجزائريون، إلى جانب إهانة المستدمر للحُجَّاج الميامين الذين أرادوا السفر مع باخرة تقلُّهم إلى البقاع المقدسة من الجزائر إلى جدَّة.

سيسافر الحُجَّجُ مودِّعًا أهله ووطنه لمدةً طويلةً فوق سفينة تتقاذفها الأمواج، وعادة ما يكون ذلك لأول مرة في حياته، لقلة فرص تكرار الحجِّ، فينتابه الخوف من زرقة السماء وزرقة البحر الذي قيل عنه: «الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، والناس فيه دود على عود». وإذا أضفنا إلى ذلك ما قيل عن استغلال صاحب امتياز شركة النقل إذ زاد في سعر التذاكر، وضاعف من عدد المسافرين لزيادة الخبر تصوُّرًا أوضح للمعاناة.

لقد نشر الشيخ عدُّون مقالًا في جريدة «الأمة» اليقظانية بعنوان: «إلى م العبث بكرامة وفد الله؟!»، يقول فيه: «إنَّ الحجَّجَّ ركنٌ من أعظم أركان الدين الإسلامي، وفريضة يقُدِّسها المسلمون أكثر مما يقُدِّسون سائر الفرائض، لأجل القيام بهذه الفريضة المقدَّسة يفارقون أوطانهم وأهاليهم، ويصرفون أوقاتًا طويلةً عزيزة، وينفقون آلافًا مؤلفة، ويقطعون آلاف الأميال»⁽¹⁾. لقد عانى هؤلاء الحُجَّاج من ضيق السفينة التي كان من المفروض أن تحمل 1300 راكب فحملت 2682. وحيث إنَّ الحُجَّاج مع ذلك حُرِّموا من تأدية مناسك حجهم، وذلك ما يُفهم من الفقرة التالية إذ يقول متحسِّرًا: «ولكن المصيبة التي لا تهون، والخسارة التي لا تُعوَّض، والجرح الذي لا يندمل، واللوعة التي لا تنطفئ هي هذا الحرمان القاسي،

1- السنة الثالثة، العدد: 109، 28 ذو القعدة 1355هـ/ 9 فيفري 1937م.

وهذا الانقلاب الخائب، وستبقى هذه الحادثة سبباً الدهر، يتحمل عارها من تسببوا فيها، ولعنة الأجيال تنصب على هؤلاء القساة الذين لم يكفهم استنزاف الأموال، فتجاوزوه إلى استنزاف الدموع. لكم الله أيها المتخلفون، فهو ملجأكم الوحيد الذي إليه تلتجئون، وركنكم الشديد الذي إليه تأوون، فهو الذي يأخذ بحقكم من الظلمة، ويتصف منهم شر انتصاف، يوم يعرض الظالم على يديه، وإن للمظلوم دعوة لا ترد»⁽¹⁾...

هذه بعض المعاناة التي كان يعانها جيل ذلك الوقت، وما لم يُذكر لجهلنا به أكثر وأكثر.

ثالثاً: نماذج من رحلات الشيخ عدون:

أ- النموذج الأول: الرحلة إلى ليبيا لأداء واجب التعزية:

توفي العلامة المفكر الشيخ «علي يحيى معمر» (رحمته الله) يوم 15 جانفي 1980م بطرابلس بالقطر الليبي الشقيق، بعد كفاح مرير في طلب العلم ونشره، وتعريف بالمذهب الإباضي إلى أتباعه وأتباع المذاهب الأخرى، وكان سبباً في إزالة كثير من الأوهام التي علققت لدى أفكار الناس عنه، بقصد أو بغير قصد. وقد ألف كتباً مهمة في تاريخ الإباضية كانت سبباً مهماً في التقريب بينه وبين غيره من المذاهب الإسلامية، وهو صاحب المقولة المشهورة: «المعرفة، والتعارف والاعتراف». وهو من أهم مشايخ الإباضية الليبيين.

لقد تتلمذ (رحمته الله) بمعهد الحياة بالقرارة بوادي ميزاب في الجزائر، بداية من سنة 1937م، وأقام بها سبع سنوات، تتلمذ خلالها على مشايخ منهم: الشيخ إبراهيم بيوض، الشيخ شرفي سعيد (الشيخ عدون) رحمهما الله. وحينما بلغ خبر وفاته إلى القرارة وإلى مجلس العزابة، بادر الشيخ عدون بجمع وفد يمثل ميزاب ومن له به

1- المصدر نفسه.

علاقة قديمة أو حديثة على الفور، وأعلمه بالذهاب إلى ليبيا لأداء واجب التعزية
غداً الجمعة 27/2/1400هـ = 16/01/1980م⁽¹⁾.

وقد تألف الوفد من المشايخ والسادة الآتية أسماؤه:

- *- الشيخ شريفى سعيد بن بالحاج (الشيخ عدون).
- *- الشيخ مرمورى ناصر بن محمد.
- *- الشيخ أبو القاسم عبد الحميد بن أحمد.
- *- الشيخ فخار همو بن عمر.
- *- الشيخ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى، الشهير بـ«القرادى».
- *- الشيخ أوراغ باحمد بن عمر.
- *- الشيخ أبو العلا عيسى بن عبد الله.

ومن غير المشايخ:

- *- الأستاذ سليمان بوعصبانة عمر (لقمان)⁽²⁾.
- *- السيد بافولولو بكير.
- *- السيد لخبيطى محمد.

والتحق بالوفد جواً الشيخ ابن يوسف سليمان بن داود.

وصل الوفد في اليوم الثالث من وفاة الشيخ علي بن يحيى معمر، والسرادق
منصوبٌ ووفود المعزّين لا زالت تتوافد وتتوالى، وكلمات التعزية تُلقى، ومن بينها
كلمة الوفد التي ألقيت نيابة عن أهل ميزاب كلهم.

1- رسالة موجهة إلى الدكتور محمد ناصر يُعزّيه في أمه رحمها الله، ويخبره بذهاب الوفد غداً،
والرسالة مؤرخة بيوم الخميس 26/02/1400هـ = 15/01/1980م. ينظر كتابه: «مشايخي
كما عرفتهم»، دار الريام 1429هـ/2008م، ص 373. (ليس الثلاثة كما ذكر في معجم
أعلام الإباضية...).

2- لقد كان اختياره لي لوجود علاقة تربطني بالمرحوم، وهي أنني كنت مدرسا بمدرسه القرآنية
في السنة الفارطة.

أهم ما في الرحلة:

- لقاءنا مع المرحوم الدكتور عمرو خليفة النامي، ومؤسس مسجد الفتح ومدرسته بطرابلس.

- لقاءنا بالسفير الشيخ بالحاج الحاج عمر بن محمد القراري.

- لقاءنا بالمشايخ المعزّين.

نذكر شيئاً مهماً وهو:

- إلحاح الإخوة على قبول توفير زاد للطريق قبل الانطلاق، رغم توفر ذلك في تونس (وذلك لحكمة أرادها الله) في طريقنا.

- زيارتنا لجزيرة جربة.

- لقاءنا بالشيخ سالم بن يعقوب المؤرّخ الداعية.

- لقاءنا بآل الباروني.

في الطريق إلى الحدود الجنوبية التونسية، وفي قفصة، وقبل اجتياز قفصة تسبّب تمزّق إطار عجلة السيارة ليلاً في التعرّيج إليها والذهاب إلى النزل، واخترنا النزل الذي نزلنا به عند قدومنا أوّل الأمر (نزل الواحة) حتى يتم إصلاح العجلة الممزقة تماماً في الصباح إن شاء الله.

وخوفاً من السرقة (كما حدث عند قدومنا) أنزلنا كل شيء حتى الزاد والأمتعة وتركنا السيارتين في محطة البنزين المحروسة ليلاً ونهاراً. في منتصف الليل سمعنا دويًا قويًا خلناه انفجار قارورة غاز، وفي الصباح علمنا أنّ كل من خرج من قفصة في اتجاه وادي سوف في تلك الليلة تعرض للقصف والموت، كما شاع أنّ المتسبيين جزائريّون، ويحملون أوصافنا، لهم «قشاييات» وملتحون. فكان القتل والدمار للأبرياء العزّل، والذبح في الشوارع، والزج بالناس في أقسام المدارس، وإلقاء القنابل عليهم من نوافذها.

بقينا في النزل ننتظر الموت المحتوم، والرصاص يدوي من فوق النزل، خمسة أيام قضيناها بلا زاد إلاّ الزاد الذي ألزمنا بأخذه من الإخوة الكرماء.

كان الشيخ عدّون أكثرنا ثباتاً، والمتصدّر لختمات القرآن، وللدعاء. وكان الشيخ عدّون أكثرنا بذلاً حينما اضطررنا لشراء إطار العجلة من جديد.

هكذا السفر دروسٌ ومحكٌ لمعرفة الرجال ومواقفهم. ولعلَّ الاستجابة للأمر الجليلية - مثل الأسفار - أعظم محكٌ لمعرفة إخلاص الرجال ومدى صبرهم.

ضرب الشيخ عدُّون أروع الأمثلة في الصبر والكرم والتواضع، كما ضربت الجماعة أروع الأمثلة في طاعة الشيخ، فلا أحد ينفرد برأيه، والكلُّ يخاطبه بأرق العبارات، ويقدم له كلَّ الخدمات. لقد كانت الرحلة كلُّها - مجلوها ومُرَّها - تحفُّ بها الكرامات الإلهية، ومِنَّ من الله عزَّ وجلَّ، نرجو ذخرها وثوابها عند الله يوم القيامة.

ب - النموذج الثاني: رحلته إلى الغرب الجزائري:

من خلال المقال الذي كتبه الشيخ عدُّون سنة 1351هـ الموافق لـ 1932م⁽¹⁾ يصف فيها رحلته إلى الغرب الجزائري مرافقا للشيخ بيُوض رحمهما الله، تعدُّ هذه الرحلة نموذجا لرحلة داخلية استطلاعية دعوية من رحلات الشيخ الكثيرة.

***- المحطة الأولى:** ابتدأت الرحلة في 28 صفر 1351هـ من الجزائر إلى البلدة رافقهم فيها الشيخ أبو اليقظان، وعقدت هناك جلسات تناولت عدَّة مواضيع إصلاحية، وكانت الاجتماعات جلسات علمية دراسية.

***- المحطة الثانية:** هي مدينة «الأصنام» كما كانت تسمى (وتسمى «الشلف» حاليا)، وقد ميَّز الشيخ جماعة «الأصنام» بقوله: «رأينا فيهم الكرم الفياض، والخلق الكريم، والصلاح والتقوى، قد امتازوا عن سائر البلاد بالقيام بمسجدهم وعمارته، حيث إنَّهم كلُّهم يقفلون دكاكينهم عند صلاة العشاء ويؤمنون جميعا المسجد، ولدى اجتماعهم يدرسون حزينين من القرآن الشريف، وهذا دأبهم كل يوم»⁽²⁾.

أقام الوفد في مدينة «الأصنام» ليلتين، وألقى الشيخ بيُوض في الليلة الأولى درسا في التفسير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

1- جريدة النور اليقظانية.

2- المصدر نفسه.

الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ (التوبة: 18).

في الليلة الثانية أقيمت لهم حفلة أدبية شيّقة، ألقى فيها الشيخ بيّوض درسا في موضوع أهمية التعليم وبذل كل شيء في سبيله.

أما المحطة الثالثة فهي مدينة «مستغانم»، فرغم عدم إخبار جماعتها بالقدوم فقد قاموا بواجب الاحتفاء بالوفد، وطافوا به بين أقسام المدينتين القديم والجديد، وألقى الشيخ بيّوض درسا حثّ فيه الجماعة على التضامن وإصلاح ذات البين، والسعي في تأسيس مدرسة لتعليم أولادهم، إلى استغلال وإصلاح دار موقوفة لهذا الغرض.

أما المحطة الرابعة فهي مدينة «غليزان»، فقد لقي الوفد حفاوة بالغة من الميزابيين وأهالي غليزان على السواء، لقد أشاد الشيخ عدّون (رحمته) بالحفاوة التي استقبلوا بها: «رأينا منهم من الكرم الحاتميّ والسخاء النادر، ومن الصفاء والتضامن والإخلاص، وإكبار شأن العلماء وتقديرهم حقّ قدرهم ما يفوق حدّ الوصف»⁽¹⁾، وألقى فيهم الشيخ بيّوض درسا بليغا في موضوع الوحدة، دام ساعة ونصفاً.

ويقول الشيخ عدّون واصفا هذا الدرس بأنّه: «ضمته عظات وعبر تاريخية، وأدلة وبراهين على وجوب الاتحاد والتعاون صفاً واحداً في سبيل خدمة الدين وإعلاء كلمة الله، على أنّ مبادئ المذهب لا تتمتع من انضواء الكلّ متساندين جنباً إلى جنب تحت لواء لا إله إلا الله...»⁽²⁾. ولقد ترك الشيخ بيّوض المستمعين مندهشين لسعة علمه وحسن بيانه، وتلقّوا ما سمعوه بالقبول والإذعان والإعجاب.

وهكذا... فإنّ الشيخ عدّون (رحمته) أراد أن يُفيد القارئ والسامع بهذه الرحلة المباركة، وقد أراد أن يشارك قراء جريدة الشيخ أبي اليقظان بما استفاد من رحلته هذه، وكان همّه انتقاء أهمّ أخبار الرحلة.

كما نلاحظ أنّ الشيخ بيّوض (رحمته) كان يتتقى الدروس حسب ما يقتضيه المقام.

1- المصدر نفسه.

2- المصدر نفسه.

ومن كلام الشيخ عدّون نأخذ وصفا جميلا للمأدبة التي أقامها الأهالي للوفد، ولنتائج التضامن والوحدة وللحفاوة بالعلماء من سكان «غليزان» أهالي وميزابيين. يقول الشيخ عدّون: «وفي الليل أدّب إخواننا الأهالي مأدبة فاخرة كانت مثالا للكرم الحاتمي العربي البدوي، إذ كانت في سرادق بديع؛ مضروب على أعمدة مرتفعة من جميع جهاته على شكل مظلة، مزدان بأنوار الكهرباء، مفروش بزرايبي مبنوثة في ساحة خارج البلدة فسيحة، والهواء طلق، والنسيم عليل، وكانت المائدة حاوية لكل ما لذّ وطاب من مأكّل ومشرب، وقد حضرها كلُّ من حضر في الصباح وأكثر»⁽¹⁾. على إثر ذلك ألقى الشيخ درسا في حقّ المسلم على المسلم، وكذا في البذل والكرم، وشرح قوله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽²⁾.

وكان الشيخ بيّوض يستغلُّ فرصة وجود الشباب، فكان يحثُّهم على الافتخار بالتدين، وأنّ الدين لا يتنافى مع المدنيّة، مقارنة ذلك بما يقع في أوروبا أنّها تعتر دائما بالكنيسة، أمّا ناس اليوم فيرون ذلك سبّة وعارًا.

أمّا المحطة الخامسة فهي «تيارت» «تاهرت»: حيث زار الوفد والمرافقون له آثار الدولة الرستميّة، وتذكروا فيها أمجادها. يقول الشيخ عدّون: «ومن تيارت زرنا أطلال «تاهرت» فذكرتنا لما للدولة الفخيمة من حضارة واستبحار عمرانها، وازدهاره أثناء تألّق نجمها في سماء الجزائر، واستواء بدرها في كبد سمائها، ولم يبق لذلك من أثر غير هذه الأطلال التي تنشد بلسان حالهم: «تلك آثارنا تدل علينا»⁽³⁾.

1- المصدر نفسه.

2- سورة البقرة: 261-262.

3- المصدر نفسه.

*- المحطة السادسة مدينة «السوقر»: ذكر الشيخ عدُّون لقاءهم بالوطني الغيور الطيب عمر - القسنطيني الأصل - ووصف ما رأى فيه من الشهامة والغيرة الصادقة والشدة على الخرافيين وأهل البدع، واللين من جهة أخرى على المصلحين وخفض الجناح لهم.

هكذا انتهت زيارتهم عبر «أفلو» و«الأغواط» حيث وصلوها يوم الثلاثاء 7 ربيع الأول 1351هـ.

فوائد هذه الرحلة:

لقد ختم الشيخ عدُّون مقاله هذا بكلمات علينا أن نكتبها بماء الذهب، ونحفظها للأجيال الصاعدة، ويمكن أن تأخذ منها فوائد جمة، إذ يقول:

«الآن الفوائد المستخلصة:

*- **إنَّ في الأمة استعدادًا للنهوض والرقى إن وُجدَ من يأخذ بيدها من الرجال المخلصين، ويتقدَّم بها في الميادين الصالحة.**

*- **إنَّ بذور الوفاق والألفة قد أثمرت ثمارًا طيبة وآتت أكلها ضعفين.**

*- **إنَّ دعاة التفرقة وسامسة السوء قد لقيت دعايتهم الخبيثة فشلاً وخيبة.**

*- **إننا لم نشاهد إلا تضامناً وتكاتفاً والتتاماً والتحاماً... وهتافاً بجياة أنصار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومؤيديها... كلُّ هذا من جهود رئيسها الجليل وأعضائها المخلصين»⁽¹⁾.**

كلمة أخيرة في شأن هذا الموضوع:

أنهى الشيخ عدُّون مقاله بكلمة أخيرة، فيها دعوة مباشرة لكلِّ واحد منا حتى يسعى في رحلة إصلاحية لرأب صدع المسلمين، وإحباط دسائس المندسِّين، ويقول فيها: «إنَّ الأمة بحاجة أكيدة إلى أمثال هؤلاء الدعاة المخلصين، حتى يزول منها تماماً ما علق من الأوهام والأغراض السيئة التي ينفثُ سمومها الدجاجلة

1- المصدر نفسه.

والانتفاعيون، وذوو الأغراض السافلة، فلرحلة واحدة في ظرف أسابيع أعظم أثرًا وأجدى نفعًا من جريدة سيّارة قائمة بوظيفتها عدّة سنين»⁽¹⁾.

ووجه الكلام إلى المصلحين المخلصين قائلًا: «فليوجه المصلحون العاملون عنايتهم إلى هذه الناحية من الإصلاح، فإنّها أقصر مسافة، وأضمن طريقة للنجاح، وأجزل فائدة وأعم نفعًا»⁽²⁾.

ولا يسعنا إلاّ نستثمر هذه الجهود السابقة من شيخنا في أمثال هذه الرحلات الطيبة، مهتدين بهدي الله وسنة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمّة المهتدين رضوان الله عليهم أجمعين.

ج - النموذج الثالث:

من خلال جلسة تاريخية شيّقة (مصورة بالفيديو) بمنزله مع الشيخ شريفي بالحاج بن الشيخ عدون، دار حديثنا حول:

1- زيارة الشيخ إلى جربة ونفوسة سنة 1972:

المشاركون في الرحلة:

الشيخ بيّوض، الشيخ عدّون، السيد عمر بن بكير الحاج مسعود، الشيخ محو بن عمر فخّار، السيد عمر سكوتي، الشيخ بالحاج بن عدّون شريفي، السيد الحاج أحمد خياط.

*-محطات الرحلة:

- *- من القرارة إلى مليكة.
- *- من وارجلان إلى الحدود التونسية من جهة الوادي مباشرة إلى جربة.
- *- الاستقبال في «البطّاح» المؤدي إلى جربة.

1- المصدر نفسه.

2- المصدر نفسه.

- *- جلسات مع الشيخ سالم بن يعقوب (رحمته الله).
- *- كان نشاط جربة في الليل لسماع دروس الشيخ بيوض.
- *- زيارة غار «أجماج»، ذلك المعلم التاريخي الذي اجتمع فيه سبعة من المشايخ لتأليف «ديوان الأشياخ»، ولا يسع لأكثر من عشرة أنفار، لأن طولها أربعة أمتار وعرضه متران، وارتفاعه ما يقارب المترين. وبعد زيارته عقد الوفد ختمة القرآن، ودعا الشيخ بيوض بدعاء، فخنقته العبرة لجلال الموقف، ذلك ما جعل الشيخ بالحاج شريفني يحنق بالعبرات أيضاً، بعد أن تذكر الموقف الرهيب وهو يقصه علينا بعد 27 سنة.
- *- التوجه إلى ليبيا.
- *- المبيت في الحجر الصحي.
- *- استقبال الشيخ علي يحيى معمر للوفد صباحاً بمعية أحد الطلبة القدامى.
- *- الانطلاق إلى «جبل نفوسة»، والنزول في المدارس التي كانت تحت إشرافه.
- *- التوجه إلى مدينة «جادو».
- *- زيارة الآثار القديمة الموجودة بجبل نفوسة.

2- زيارته لفرنسا ومنها إلى المشرق: سوريا ولبنان ومصر سنة 1974:

المشاركون في الرحلة:

الشيخ بيوض، الشيخ عدون شريفني، الشيخ بالحاج بن عدون شريفني، السيد عمر بن بكير الحاج مسعود، السيد الحاج أحمد خياط، السيد بوقرطاس محمد بن عمر.

*-محطات الرحلة:

- *- من الجزائر إلى باريس.
- *- من باريس إلى دمشق، ومنها إلى حلب.
- في المطار أعجب بعض الحاضرين بهيئة الشيخ بيوض واستضافوه إلى عزاء كان المتوفى أحد أقارب «فاروق النبهان».

*-المزارات والشخصيات:

- *- زيارة سجن المتني.
 - *- زيارة قبر خالد بن الوليد - سيف الله المسلول - في العودة إلى دمشق.
 - *- الاتصال بالدكتور شكري فيصل مشرف الدكتور محمد ناصر.
 - *- الاتصال بعز الدين بليق الذي طبع شرح النيل للشيخ اطفيش، واصطحب الوفد معه إلى لبنان.
 - *- الاتصال بالدكتور فتحي، كانت له مؤسّسة علمية من الحضارة إلى الجامعة.
 - *- زيارة الجامع الأموي.
 - *- زيارة قبر صلاح الدين الأيوبي.
 - *- زيارة جبل قاسيون، وكان عاريا تماما من البناء آنذاك.
 - *- زيارة منابع نهر بردى، وكان غزيرا دفاقا آنذاك، وكانت مياهه صافية قبل أن يلوث بمياه الصرف.
 - *- زيارة غوطة دمشق الفيحاء.
 - *- لقاء بالمحدث الكبير الشيخ الألباني.
 - *- في القاهرة كان نزول الشيخ بيّوض عند الإمام الشيخ غالب وأخيه طالب، ونزل بقية الوفد عند الشيخ الحاج محمد اطفيش بالمطرية.
 - *- زيارة بعض المعالم التاريخية.
- هذا ما شاهده الشيخ شريفني بالحاج مع الوفد، وقصّه علينا في الشريط المسجّل، ولم يستطع زيارة خطّ «بارليف» مع الوفد لحلّول أجل الدخول الجامعي.
- *- زيارة مدينة الإسكندرية.
- ولقد ذكر ابنه الشيخ بالحاج بن عدّون في آخر الحصّة بقية رحلاته باختصار بأنّه حجّ أوّل مرّة سنة 1934، وحجّ آخر مرة سنة 1987، وربما قد حجّ مرّة ثالثة.
- *- سافر إلى أوروبا، ومنها إلى المشرق مرّتين.
 - *- سافر إلى فرنسا عدّة مرات، منها ما هو للعلاج.
 - *- سافر إلى تونس عدّة مرات، وزار البعثة بعد 1951م.

ويتساءل الشيخ بالحاج: هل زار الشيخ عدّون عند افتتاح دار الحديث سنة 1937م مع المشايخ الشيخ بيّوض والشيخ أبو اليقظان، ويقول: «لقد استغللت

حضور ضيوف تلمسان إلى «مهرجان الوفاء»⁽¹⁾ وسألت أحدهم فأكد لي أنَّ
الشيخ عدُّون حضر ذلك الافتتاح، ولكن لم يظهر في الصورة مع الشيخ بيُّوض
والشيخ أبي اليقظان»، رحم الله الجميع.

خاتمة:

لقد حرصنا أن نعتمد على أوكد المصادر وأقربها لكتابة هذا المقال، وقد
أجرينا لقاء مع فضيلة الشيخ بالحاج شريقي⁽²⁾، وتتبعنا ما كتبه الشيخ عدُّون بيده،
وكنا أحد المصادر في الرحلة إلى ليبيا كشاهدٍ أوَّل، وندعو الله أن نكون أمناء، وأن
الذاكرة لم تخنا بعدُ إن شاء الله.

كانت هذه مصادرنا، ونأمل مستقبلاً أن تتوفر لدينا بقية المعلومات، لاسيما
مذكرات الشيخ، وتقارير التفتيش التربوي، لمعرفة طبيعة الأسفار، كمبيته في مدينة
وانتقاله سحراً ليفتش المدارس القرآنية فجراً... وسنبحث بقية المعلومات من المصادر
الأخرى إن شاء الله، من المصادر الشفوية ممن سافر معه، كما آمل أن أجد المادَّة في
مذكرات الشيخ هوُّ فخار، فالموضوع في بدايته، أقترح على الباحثين مواصلة التعمُّق
فيه. وأشكر الشيخ بالحاج بن عدُّون حفظه الله الذي فرح لهذا الموضوع الطريف. كما
أشكر الذين وفروا لي المادة الخبرية عن الشيخ عدُّون من خلال صحافة أبي اليقظان
(ﷺ)، وهي أوثق وأهم مصدر. والله من وراء القصد.

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرُدُّوهُ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ ﴾
﴿ فَيَتَشَكَّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: 105).



- 1- كان ذلك خلال «مهرجان الوفاء» لتأيين الشيخ عدُّون وافتتاح المبنى الجديد لمعهد الحياة، والذي
أقيم بالقرارة، أيام: 4-6 جمادى الأولى 1430هـ / 29-30 أبريل و1 ماي 2009م.
- 2- وذلك خلال ربيع الثاني 1430هـ / أبريل 2009م.